

فوق جبل البارود

للدكتور زكي مبارك



طاف الشاعر بالشواطىء طواقاً طال حتى بلغ سبع ساعات ،
وكانت فاقته من طول الطواف أن يرى جنّية تفوق صاحبة
اليماد ، ليستطيع التمرد عليها إن فكرت في التمرد عليه ، ولكنه
لم ير في الشواطىء ما يُصبيه أو ينسيه ، فقد كانت الجنية أقوى
روح تخطرت فوق تلك الرمال

أبأن يذهب الشاعر لو نفرت منه الجنية ؟

لقد سحرته سحرألاً نجاة منه ولا خلاص ، وصيرت السجن
أحب إليه من الحرية ، وفرضت عليه أن يفرح بنعمة الشقاء
إنه يذرع الشواطىء من الجنوب إلى الشمال ، ومن الشمال
إلى الجنوب ، فلا يرى من ذلك المُلْك المريض ، مُلْك الحسن
الوهاج ، غير ألامح مقبوسة من نيران الجنية ، والجنيات خُلقن
من النار لا من الماء

سبع ساعات والشاعر في حيرة من أمره ، في حيرة من بخل
الطبيعة بأن تجود عليه بما يُصنيه أو يُسليه ليتنرد على الجنية
لحظةً من زمان

وكان اليماد عند الغروب ، في اللمحة التي تخلع فيها الشمس
أثوابها الفضية لتستحم في البحر وتنام إلى الصباح

— ألا تخاف على الشمس من هذه الماقبة ؟

— أية ماقبة يا غبوبي ؟

— ماقبة اغتراق الجر في الماء

— لو كان الماء يطفى الجر في كل وقت لأطفأت دموعي

نار قلبي

— ولك دموع وأنت أقمى من الجلود ؟

ومضينا نخلونا بمكان لا يهتدى إليه رقيب ولا هذول ، وكانت
الخلوة مزججة إلى أبعد الحدود ، فقد كان النرض أن أستطيع
حصر نار الجنية في مكان ، وأن تستطيع الجنية حصر قلبي
في مكان

— اجلس هنا لأجلس هناك

— جلست هنا فأجلسي هناك

— ولا تعد يدك ولا بصرك

— أما أملك كف يدي ولا أملك غضب بصري

— وكيف رضيت بهذه الخلوة يا شقية ؟

— أردت أن أمتحن قدرتي على مقاومة الساحرين من

أمثالك ، فامتحن قدرتك على مقاومة الساحرات من مثيلاتي

ثم أسلمت الساحرة جفنيها إلى نوم عميق

كان قلب الجنية بكراً قبل أن أراها وتراني ، فليس لها

في الحب تاريخ ، ولم يجر اسمها على ألسنة اللاجئين ، ولا أقلام

العابثين ، وإنما استهواها قلبي وشعري فأرادت أن ترى كيف

يعيش الكتاب والشعراء

لا بد مما ليس منه بد

لا بد من احترام رغبة الجنية ، وهي قد ألحت في أن (أقسم

بشرف الحب كتماناً في أمان)

قال الشاعر : ونظرت فرأيتني مفهوراً على امتشاق القلم

لأسجل ظاهرة روحية لم يعرفها من قبلي أحد من الهبين

كفت ألتهمها بعيني والقلم في يدي ، وكان نوسها هيبها بنوم

الفتنة ، ونوم الفتنة مقدمة المهبوب

قامت الفتنة واستيقظ ضميري ، فهمت بالقائها من الشبابك

ولكن هذه الفتنة ستعرض لماثم إن رفعت عنها حمايتي

في مثل هذا الليل

آه ثم آه

أنا في هذه اللحظة أقيم فوق جبل من البارود ، وشرارة

واحدة تكفي لتحويل إلى رماد تذرره الرياح ، وأنا أبفض الفناء

واستيقظت الفتنة فرأيتني في سياحة فارستها القلم ومهداتها

القرطاس

— ما ذا تصنع ؟

— أسجل خواطر وكلمات

— وما ذا سجلت ؟

— سجلتُ ما نصَّه بالحرف :

« هي لحظة جمعت أطراف النعيم في جميع الأقطار وفي جميع الأزمان ، فما كانت لها مثيل في تصوير عشاق النعيم في زمان أو مكان ، لأنها فوق ما يجاوز بخواطير أهل الخيال من طلاب المحال ... هي لحظة فيما تعرف التعابير الدنيوية ، ولكنها فيما تعرف الأرواح أبداً أطول من عمر الخلود ... هي لحظة لا يبالي من يعيشها معنى الحياة والموت ، لأنه اجتاز بها آفاقاً لا يجتازها غير من تسامت قدرته على ضجيج الحياة وسكون الموت ... في تلك اللحظة طاف القلب وطاف الروح بمالم ومجاهل لا يدرك العقل منها غير أطياف ... هي لحظة ولكنها المعصرة الدامية من قلب الوجود ، وأنا عشت تلك اللحظة فلتفعل الدنيا ما تشاء ، وما الذي أبقيته للدنيا حتى تنزعه من يدي ؟ أنا نهبت من الدنيا جميع ما تملك ، فلتقابلي إن استطاعت في ساحة القضاء »

قالت الجنية : أهذا هو المحصول لمثل هذه المفارقة العاتية ؟ قلت : هذا ما يملك قلم يقيم صاحبه فوق جبل من البارود ! — ولكني لم أر جديداً في كلامك — كيف وهو كلام لم يقله أحد من قبل ؟ — أنت قلت مثله صرات ومرات ، فكان مبتكراً أول مرة ، ثم صار من البتذلات — وإذن ؟

— وإذن تقول كلاماً غير هذا الكلام لأرضى عنك ونامت الجنية من جديد ولم تترك لي سميماً غير قلبي ، فإذا أصنع ؟

الخطر كل الخطر في عشق الموحيات من المليحات . من يتوهم أن المشق وسيلة لا غاية ، ويرى أن ثمرة الحب ليست طفلاً يولد على نحو ما تكون ثمرات الحب في عالم الحيوان ، وإنما الثمرة لمثل الحب الذي تسامينا إليه أن ينتج مواليد من كرام الماني ، مواليد لا تتعرض للمرض ولا للموت

صوبت بصرى إلى وجه الجنية وكتبت :

« لقد آذاني الحسن المجلوب بالطلاء ، وهو حسن للموت فيه حيوية اللون ، ففمرت محبوبي في أنباج البحر لأرى قيمة ما تملك

من جوهر الحسن الصحيح ، والجمال عندى يوزن بحيوية اللون ، وهي حيوية تنموج فوق الصدر والخذ والجبين ، وقد تنموج فوق اليدين بأسلوب لا يدرك راميهِ غير فلاسفة الجمال . إن اللون قد يحتفظ بالصورة ، ولكنه لا يحتفظ بالحيوية إلا إن سقاء ماء الشباب . وحيوية اللون هي سرّ السحر في الميرون الزرق والخضر والسود ، وهي أيضاً السبب في أن يكون بعض السمر أجمل من بعض البيض ، لأن الأمر كله لحيوية اللون ، والقول بأن البياض نصف الحسن قول عليل ، فلا قيمة لنوع اللون وإنما القيمة لحيوية اللون »

ثم صوبت بصرى مرة ثانية إلى وجه الجنية وقد هممتُ بأشياء ، فهبت مذعورة وهي تقول :

— ماذا تريد ؟

— أريد أن أقرأ عليك هذه الكلمات

فرحت الجنية بما سمعت ، ثم استسلمت إلى الهجود ، وتركتني وحدي

أنا أقيم فوق جبل من البارود ، وشرارة واحدة تكفي لتحويلي إلى رماد تذروه الرياح

— أيتها الجنية ، اسمي !

— لن أسمع ، وإن كنت سمعت

— وما نؤمك هذه الليلة تحت بصرى ؟

— لأعرف ما عندك من الماني ، فاكذب كلاماً يرضيني

ثم هجرت الجنية في غيبوبة أبلغ من يقظة القلب الخفاق ، ونهضت قبل الشروق ، لتبلغ مأمنها قبل الشروق ، بعد أن عرفت أن الإسكندرية لا تقل ربحانية عن القاهرة ، والمنصورة وأسيوط

لم تكن ليلتنا مما ينتظر في دنيا الحقائق أو دنيا الأباطيل ، ولا جاز في أوامرها أو أحلامها أن تجري بيننا شؤون يفضحها نهار أو يسترها ليل ، فقد شقيت بالجنية ما شقيت ، ويئست منها ما يئست ، ولم يبق لي أمل يفوق السماح بأن أعيش في هذاب ...

وفي الحب سجون لا تُدخَل بدون استئذان !

كيف ظفرت بالجنية ؟

أكان من هواها أن تزور السكان الذى نظمت فيه قصيدة ...
 أى قصيدة ؟ وهل نظمت بيتاً غاب عنه وحياها الجميل ؟
 إن حياتى فى جميع مناحيها الروحية لا تعرف غير تلك
 الجنية ، وأنا لا أرى الدنيا ولا أحبها إلا حين أتمثل روحها
 الشفاف وهو يتاجبنى برفق ، أو بلاحيى بعنف ، ونحن نذرع
 أودية الخيال

مضيت يوماً لرؤية النيل عند الطغيان ومضى صديق متبرم
 بمصر والمصريين ، قلت :

— هل تعرف يا صديقى كيف أرى مصر ؟

— كيف تراها ؟

— أراها فى وجه الجنية التى نشأت فوق ضفاف النيل ،
 ولولا الخوف من أن تهمنى بالجنون لقبّلت كل وجه وكل
 شجرة وكل جدار بهذه البلاد

من أجل من ؟

من أجل الجنية ، فهى وحدها الدليل على أن مصر وطن الجمال
 — الآن عرفت

— وماذا عرفت يا جهول ؟

— عرفت كيف نجمت من التبرم بمصر والمصريين

— مصر وطن الجنية ، والمصريون أعمامها وأخوالها ،
 فأنالها ولهم أوفى الأوفياء

— وما نصيبك من الجنية ؟

— نصيبى أن تكون لى وحدى ، وهى لى وحدى

— وهل تكون أجل من الشمس ؟

— جمال الشمس جمال مبذول ، فليس له سحر ولا فتون
 أما جمال الجنية فهو جمال الزهرة المشرقة فى ضمير البيداء ، ولن
 تكون لغير من يدرك سرها الغريب

— وكيف اهتديت إلى هذا الجمال المجهول ؟

— لقد اهتدى إلى قبل أن أهتدى إليه ؟

— وكيف ؟

— صنع منى ما تصنع السرحة لاجتذاب البلبل ، فأورق

وأزهر ليطيب فوق غنائى ، فأنال أدعت ذلك الجمال

— وهو أبداع شعرك

— وصيرنى من أقطاب الوطنية ؟ غناى بحب الرجل وطنه
 إلا إن كان له فيه هوى وميماد

مضت أعوام وأعوام ولا أرى شمس مصر عند الشروق ،
 وقد رأيتها عند توديع الجنية ورأيت معها النخلات المشرفة
 لنور الصباح

مضى الزمن الذى كان أبى يوقظنى فيه لصلاة الصبح قبل
 طلوع الشمس

فهل تعرف كيف قضت الشريعة بصلاة الصبح قبل طلوع
 الشمس ؟

شباب النهار فى الشروق ، وشباب الروح فى الشروق ،
 فاحذروا نومة الصبح ، لأنها لا تليق لغير النساء

لورجعت الجنية لحدثها بما نقلت عنها وهى تنفخ عنى مع
 الشروق ، كما يذهب الحلم الجميل مع الشروق
 علمتني الجنية ما لم أكن أعلم ، علمتني أن الحب جهاد ،
 وأن الله لا يخذل المجاهدين

هل رأيت الجنية فى دارى بالأسكندرية ؟ هل رأيتها هناك ؟
 وهل كان هذا التناجى من الحقائق لا من الأباطيل ؟

قلبي يقول لى رأيتها وأنا لا أكذب قلبى ، فإن لم أكن
 رأيتها فما هذا الذى أعانى من لجانة الواشين والرقباء ؟

لم يرونى معها جنباً إلى جنب ، أو قلباً إلى قلب ، وإنما
 رأوا بشاشة روحى وأنا عائد من الأسكندرية فقدروا أنى احترقت
 فى كوثر الوصال

روائح النعيم فى أعطافى ، ويران الوجد فى أحشائى ،
 فأنال رأيت الجنية هناك ، ثم رأيتها هناك

رأيتها رأيتها ، وشربت على وجهها كأس الصفاء ، فليفرح
 روحى بما يزخر فى خيالى ، بلو صرحت لتعرضت للشرارة التى
 تنسف جبل البارود

أنا ما رأيت الجنية ولا رأيتنى ، وما كان حديثى عنها إلا ضرباً